النسق المضمر، طعن الجمال لإراقة القبح

The implicit theme, stabbing the beauty to spill the ugliness

مخبر الدراسات المصطلحية و المعجمية

بن زايد مختار[1]، عقال فاطمة الزهراء[2]

[1]جامعة يحي فارس المدية (الجزائر)، mokhtarbenzaid89gmail.com

[2]جامعة يحي فارس المدية (الجزائر)، afatioumhalla732@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2022/01/10 تاريخ القبول: 2022/04/26 تاريخ النشر: 2022/12/15

ملخص:

يركز هذا المقال على قلب النقد الثقافي إذ يسلط الضوء على النسق المضمر فيتعرض لمفهومه وخصائصه ويمعن النظر في السلبية التي تلازمه ويحاول فهم أسبابها،ويدرس إمكانية جعل الأنساق في خانتين (إيجابية وسلبية) وكما يتطرق إلى التصدي لهذه الحيل الثقافية المتجذرة بعيدا عن الانخداع بالجانب الجمالي.هذا بالاعتماد على ما أسسه "الغذامي" و"إبراهيم عبد الله غلوم" من جهد نظري وتطبيقي مع استعراض بعض الأمثلة التوضيحية وبعض الآراء لمفكرين ونقاد آخرين.

كلمات مفتاحية: نسق مضمر،سلبية النسق، نقد ثقافي،عبد الله الغذامي،إبراهيم عبد الله غلوم

Abstract:

This article focuses on the heart of the cultural criticism, it spots the light on the implicit theme, so he tackles the definition, Characteristicsand, contemplate in the negativity that surrounded it to understand the reasons behind that, plus the possibility of classifying the implicit themes in two columns (positive – negative) as well as the defense against this cultural rotted tricks away from being fooled with the beauty aspect. All this based on the work of " Abdullah Alghadami" and "Ibrahim Abduallah Ghaloum" with demonstrating of some examples andopinions.

Keywords: implicit theme, the negativity ofthe implicit theme, cultural criticism, Abdullah Alghadami, Ibrahim Abduallah Ghaloum.

المؤلف المرسل: بن زايد مختار، **الإيميل**: mokhtarbenzaid89gmail.com

1.مقدمة:

كتب "عبد الملك مرتاض" عن "عبد الله الغذامي"الذي التقى به في عديد من المناسبات الفكرية:« حين عجَمت عُوده، و سبرت فكره، و خبرت من بعد ذلك خلاقه، اقتنعت بأن الغذامي لم يكن ليجامل في القضايا العلميّة، أو يتساهل في التعامل مع المفاهيم المعرفية، فهو يميز تمييزا دقيقا بين ما تتطلبه الصداقة من لطف و ودّ، و بين ما يستدعيه العلم من رصانة و صرامة و موضوعيّة»(مرتاض، صفحة 378). من ضمن مجهودات هذا الأخير في إطار تأسيس "النقد الثقافي" إضافته للعنصر السابع المعروف بـ"العنصر النسقي " الذي تترتب عنه الوظيفة النسقيه والمتصفح لمشروعه يصادف مصطلحات عدة من بينها "النسق المضمر"، لكن ما يلفت الانتباه هو أن هذه الأنساق المضمرة تتسم بالسلبية وهذا ما يدفعنا إلى طرح تساؤلات: ما هو النسق المضمر؟ ألا وجود لأنساق مضمرة إيجابية وسليمة؟ وفي حين وجدت هل يعجز النقد الثقافي عن إبصارها؟ أم أنه يتجاهلها فحسب؟ وأخيرا، كيف يتم الوقوف في وجه الأنساق؟

2.النسق المضمر، بين الايجابية والسلبية:

إذا ما بحثنا عن "النسق"فيمعجم أسرار اللغة نجد«كلام متناسقٌ، و قد تناسق كلامهُ، وجاء على نسقٍ ونظام»(الزّمخشري، 1998، صفحة 266) و يقال « غرست النخل نسقا»(الزّمخشري، 1998، صفحة 266) بمعنى منتظماً أما في لسان العرب لابن منظور « النسق من كلِّ شيءٍ: ماكان على طريقة نظام واحدٍ»(ابن منظور، صفحة 4412) و"مضمر"«أضمرتُ الشيءَ: أخفيته. الذي تُضمره في قلبك تقول أضمرتُ»(ابن منظور، صفحة 2607) و هذا كله يشير إلى وجود بنية منتظمة التركيب تمتاز بالخفاء.

في كلام "الغذامي" عن النسق المضمر يقول « يأتي مفهوم النسق المضمر في نظرية النقد الثقافي بوصفه مفهوما مركزيا، والمقصود هنا أن الثقافة تملك أنساقها الخاصة التي هي أنساق مهيمنة، و تتوسل لهذه الهيمنة عبر التخفي و راء أقنعة سميكة، وأهم هذه الأقنعة وأخطرها هو في دعوانا قناع الجمالية، أي إن الخطاب البلاغي الجمالي يخبئ من تحته شيئا آخر غير الجمالية، و ليست الجمالية إلا أداة تسويق و تمرير لهذا المخبوء، و تحت كل ما هو جمالي هناك شيء نسقي مضمر، و يعمل الجمالي عمل التعمية الثقافية لكي تظل الأنساق فاعلة و مؤثرة و مستديمة من تحت قناع»(الغذامي و اصطيف، 2004، صفحة 30) فالنسق المضمر مفهوم بالغ الأهمية وهو حجر الأساس لبناء هذه النظرية، يطمحالنسق لتحقيق الهيمنة و

السيطرة والاستدامة لكنه يعجز عن ذالك لوحده، فيستغل طرفا آخر و هو الجانب الجمالي لما يلقاه هذا الأخير من إعجاب و قبول ، شأنه شأن الطفيلي الذي لا يعيش من دون مضيف.

إلى حد الآن لا يبدو من كلام "الغذامي" ما يجعل النسق المضمر سلبيا بالضرورة، وإذا ما عدنا بالزمن إلى الخلف مع الناقد الأمريكي "أنتوني ايستهوب" الذي في كتابه "الأدبي في الدراسات الثقافية" كسر ما كان معتاداً بالجمع بين رواية "قلب الظلام" التي تمثل أدب النخبة وبين "رواية طرزان" التي تمثل الخطاب الثقافي الشعبي في تحليله:

«"قلب الظلام"	"طرزان"
تجريبية	حسية، تدرك بالحواس
ذات معنى ثانوي باطني	ذات معنى أولي ظاهري
رمزية	حرفية
المعنى فيها مؤجل	المعنى فيها جاهز
مخفية	ظاهرة
تأثيرها نفسي روحي	حدثها جسدي
لفظية	بصرية(أيقونية)
مبنية على المفارقة	ليست مبنية على المفارقة»

المصدر: ايستهوب نقلا عن الرباعي،2007،ص46.

لسنا هنا بغرض عد و تحليل خصائص الروايتين لكن ما يهمنا هو أن الناقد "أنتوني"« حين يلحظ اختلافا في قبول القراءة الحديثة يلجأ إلى تقييم مبني على حالة من حالات التفسير، ليرى أن الاختلاف في التقييم يبدأ بالظهور للعيان إذا كان التضاد بين اللفظي والبصري (أو الأيقوني حسب مصطلح بيرس) يحتاج إلى إعادة نظر على أساس أنها الأنساق الإيجابية ترى في النص الشعبي، و هي تلك الأنساق المهملة في القراءة الحديثة. إذ هذا يمنح تحليل كل نوع من النصوص الذي يقدمه لقارئه. وبناء على هذا يصبح من الممكن تفكيك الوضع النخبوي والشعبي حسب سيادة خطاب الثقافة العالية والثقافة الشعبية في الأصل العام

للنص، وحسب الطريقة التي يؤثر فيها كل خطاب منهما في القارئ. وهو يسجل موقفا لصالح قراءة "طرزان"»(الرباعي، 2007، صفحة 47).

بعدما كانت لعبة شد الحبل بين أمثال "ليفيس" و "إيغلتون" حول كون الأدب حكرا على نخبة معينة أو كونه للعامة قام "أنتوني إيستهوب" بإمساك العصا من الوسط بدراسة كل منهما بتوازٍ في كتاب واحد إذ أن لكليهما الحق في أن يدرسا بل إنه لا يبدي تحفظا في إبداء إعجابه برواية "طرزان" الشعبية ، و هذا كله يبرهن على وجود أنساق ثقافية – مضمرة – إيجابية غير أنها لم تأخذ حظها من الاهتمام فيما سبقلكون الدراسات انحصرت على الأدب النخبوي الراقي، مما يدفعنا إلى وضع فرضيات لمحاولة فهم موقف النقد الثقافي المعاصر منها :

- إما أن النقد الثقافي يعجز عن إبصار الأنساق المضمرة الإيجابية.
- أو أنه يبصر هذا النوع من الأنساق المضمرة ولا يعبأ بها مطلقا، وفي حالة حدوث هذا، ما هي دعوى مروره عليها مرور الكرام؟

تكمن الإجابة فيما خطه "الغذامي" من شروط عمل الوظيفة النسقيّة:

1- «وجود نسقين يتحدثان معا و في آن، في نص واحد، أو فيما هو في حكم النص الواحد.

2- يكون أحدهما مضمرا والآخر علنيا، ويكون المضمر نقيضا، وناسخا للمعلن، ولو حدث وصار المضمر غير مناقض للعلني فسيخرج النص عن مجال النقد الثقافي، بما أنه ليس لدينا نسق مضمر مناقض للعلني. وذلك لأن مجال هذا النقد هو كشف الأنساق المضمرة(الناسخة) للعلني.

3- لابد أن يكون النص موضوع الفحص نصا جماليا، لأننا ندعي أن الثقافة تتوسل بالجمالي لتمرير أنساقها وترسيخ هذه الأنساق.

4- لابد أن يكون النص ذا قبول جماهيري، و يحظى بمقروئية عريضة، و ذلك لكي نرى ما للأنساق من فعل ضارب في الذهن الاجتماعي والثقافي»(الغذامي و اصطيف، 2004، صفحة 30).

فالوظيفة النسقيّة تستدعي وجود نسقين اثنين في نصٍ جماليٍ واحد أحدهما جلي وصريح والآخر ضمني ويتحتم عليه أن يكون معاكسا للأول وهذه شروط، بمعنى قد تتوفر أو لا ليفهم من هذا أن السلبية أو القبح صفة قد تتحقق في النسق المضمر أو تنتفي عنه وفي هذا يكمن الإقصاء الصريح لما نشير إليه بالنسق المضمر الإيجابي، و هذا ما يطرح سؤالا آخر لماذا يهتم النقد الثقافي

بالسلبي ويعمى عن الايجابي في حين انه هو يتهم النقد الأدبي بالعمى؟ ألا يوحي هذا بالتشاؤم في ظل قول الشاعر كن جميلا ترى الوجود جميلا؟ هذا ما سنجيب عنه ونعلله لاحقا.

من الأمثلة التطبيقية الكثيرة التي أوردها "الغذامي" في مشروعه والتي لم تخرج أبدا عن إطار المضمر (السلبي) تحليله لأبيات المتنبي الشهيرة التالية:

«أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي
وأسمعت كلماتي من به صمم
فالليل والخيل والبيداء تعرفني
والسيف والرمح والقرطاسوالقلم
ما أبعد العيب والنقصان عن شرفي
أنا الثريا وذان الشيبوالهرم »(المتنبي، 1983، صفحة 333/322)

فيعلق عليها بقوله «و كأنما هي بيان ثقافي عن الذات الثقافية المترسخة فينا ... الذات الطاغية المطلقة والمتفردة صناعة ثقافية/ شعرية متجذرة ...على الرغم من إبداعية الجميع و جمالياتهم و حداثية بعضهم، غير أن النسق أقوى و أرسخ و لذا ظل يتجلى في نسخ متعددة، و يؤسس لنشوء الطاغية و يزرع الأرضية الملائمة لهذا النشوء»(الغذامي ع.، 2005، صفحة 175).لا شيء يأتي من العدم فالناقد يتتبع منابع الطاغية و يردها إلى نصوص أو أبيات من هذا القبيل والتي و إن هي فخر،لكنه يحمل في ثناياه أنساقا مضمرة تتمثل في بذور بخصال سيئة تُنتِشٌ لاحقابإنشاء الشخصية الطاغية و لا فرق بين أن يكون القارئ عاديا أو متمكنا فشعراء كثر يستقبلون مثل هذه النصوص بالإعجاب و يتشربون الأنساق بوعي أو بلا وعي منهم فيبدعون ويساهمون في نشر النسق أكثر و في استمراريته.

إن ما حققه الشاعر "نزار قباني" من نجاح هو أنه أسمع الجمهور ما أراد الجمهور سماعه لا ما أراد الشاعر قوله و كأنه إنتاج حسب الطلب«نحن كقراء مسؤولون عن هذا الصنم الذي ابتكرناه لنفسنا، و ابتكرته الثقافة من أجلنا، و صار حالنا كحال الرعايا حينما يصنعون طغاتهم عبر التصفيق لهم، فيدفعون الطاغية إلى الرضا عن ذاته و طغيانه، وإلى مزيد من الطغيان. إن الجمهور الراضي والمصفق يربي سيده على مزيد من الغلو والغرور. وهذا ما حدث بالضبط مع نزار قباني، إذا إنه صنيعة الثقافة الفحولية و مخلوق الجمهور المتغذي بهذه الثقافة و المرتوي بها» (الغذامي ع.، 2005، صفحة 82)و لهذا يتحول الشاعر إلى طاغية لوجود استقبال واستهلاك واسع من دون تمحيص ثقافي أو رفض أو إبداء أدنى انزعاج لما هو مغاير للقيم

بذريعة أن اللمسة الفنية أكثر فاعلية وأكثر تخذيرًا للرفض أو النقد، و هذا كله يساهم في تغير الثقافة تغييرا غير محبوب فيمهد الطريق لمزيدٍ من الطغيان و يكسبه مزيدا من الاعتراف بل قد يصير الخطأ أمرا عاديا في تدرجه ليصير صوابا، فالثقافة تتغير باستمرار وببطء شديد بفعلٍ منا ولكن لا يُرى هذا في وقت وجيز ،ومن جهة أخرى فإن الثقافة التي أنتجناها هي الأخرى تعود علينا بتغيير مماثل في نوع من التفاعل المتبادل وفحولة نزار قباني لم تبدأ معه بل مرت إليه عبر منتجات أدبية أخرى أثرت فيه هو نفسه تقبلها بمضمونها النسقي، وجل ما قام به هو إعادة تدويرها وتمريرها.

من هذا يمكننا القول بأن الأنساق تتمتع بقوة لعدة أسباب نذكر منها:

- الخفاء فهي تتسلل إلى المستهلك الثقافي من دون وعي القارئ ولا حتى الكاتب، والكشف عنها يتطلب مِراسة و تمكُنا قلما يحوزهما المتلقي و«لا تملك الثقافة الشخصية الذاتية الواعية القدرة على إلغاء مفعول النسق لأنه مضمر من جهة، ولأنه متمكن ومنغرس في القدم من جهة أخرى، وكشفه يحتاج إلى جهد نقدي متواصل»(الغذامي ع.، 2005، صفحة 79).
- سهلة الانتشار وصعبة الإلغاء لأنها تترسخ على مدى قرون بل منذ أن وطأت البشرية الأرض وتتلقى قبولا واسعا لأنها تنتقل في قالب جمالي وأخاذ يعمل كالطُعم فيستَميل المستقبِل فيأخذه كاملا بدون نقاش«والأنساق الثقافية هذه أنساق تاريخية أزلية وراسخة ولها الغلبة دائما، وعلامتها هي اندفاع الجمهور إلى استهلاك المنتوج الثقافي المنطوي على هذا النوع من الأنساق، وكلما رأينا منتوجاثقافيا أو نصا أدبيا يحظى بقبول جماهيري عريض وسريع فنحن في لحظة من لحظات الفعل النسقي المضمر الذي لابد من كشفه»(الغذامي ع.، 2005، صفحة 78).
- الأنساق تستغلنا فنحن نرددها مثل الترنيمات، و تتلاعب بنا فتفكيرنا، إصدارنا للأحكام، وجهة نظرنا ،ما نقول و ما نفعل كله مبني على موروثنا الثقافي بما فيه من ألغام نسقية و لهذا يرى عديد من الباحثين أن الفشل الذي نعاني منه اليوم هو نتيجة لهذه الحيل الممررة «ما اكتسبناه من السمات الشعرية قد طبع ذاتنا الثقافية والإنسانية بعيوب نسقية فادحة ما زلنا ننتجها و نعيد إنتاجها ونتحرك حسب شرطها ولعلها هي المسؤولة عن كثير من عوائقنا الحضارية»(الغذامي و اصطيف، 2004، صفحة 11).

3.التصدي للنسق:

نستهل الأمر من أن النقد الأدبي هو الممحِصُ للمنتوج الأدبي الذي كما سبق و أشرنا يحمل كما هائلا من القوى النسقية التي بقيت من دون اهتمام «لا شك أن استعمال كل من النقد الأدبي و الأدب للأداة نفسها يجعل الصلة بينهما صلة حميمة، بل عضوية **organic**، ففضلا عن أن هذه الصلة توحد بينهما في أي تقليد أدبي قومي في المكونات، فإنها تمنح النقد الأدبي هويته الخاصة به و التي تميزه من سائر أنواع النقد الأخرى، فهو نقد أدبي، خاص بفن جميل له طبيعته ووظيفته و حدوده و هو الأدب، إليه ينتسب، وله ينتمي وبه يُعرف، وليس له من نسب آخر سواه يمنحه هويته المميزة»(الغذامي و اصطيف، 2004، صفحة 74/73).

فالنقد مجال واسع التخصص يشمل حقول كثيرة كالموسيقى و الرسم و الفن المعماري و حقل اهتمام النقد هو ما يسمُه بخصائص معينة و العلاقة بين النقد الأدبي و الأدب أعمق مما هي عليه بين أي نقد آخر وحقله و لا يمكن كسرها، لأن كليهما يستخدمان نفس اللغة فالأدب كلام و النقد كلام عن كلام،و ثم النقد تابع للأدب يتتبع كل جديد بالتمعن و الشرح و التعليل و يتطور معه بتطوره.

«فلا قيمة للحكم على العمل الأدبي وحده، و إن صيغ في عبارات طلية طالما كانت تتردد محفوظة في تاريخ فكرنا النقدي القديم و قد يخطئ الناقد في الحكم، و لكنه ينجح في ذكر مبررات و تعليلات تضفي على نقده قيمة. فيسمى ناقدا، بل قد يكون مع ذلك من أكبر النقاد»(غنيمي هلال، 1972، صفحة 12). و النقد الأدبي لا يقتصر على إصدار أحكام و حسب بل يجب على الناقد أن يدعم حكمه بالدليل و الحجة ليكون مقنعا و يحكم صنع القضية، فيمنح العملية قيمة و معنا يجعلها في بعد عن الادعاءات الفارغة.

و مع كل ذاك إلا أن وجهات النظر تختلف، فالعلم يتم تطويره ليبلغ الذروة و يخدم الإنسانية حسب ما تقتضية ظروف الفترة المعاشة ،و لكن الظروف تتبدل و ما كان مهما بالأمس قد يغدو بلا معنى،« العلم متى ما تشبع تشبعاً يبلغه حد النضج التام فإنه يصبح مهدداً ببلوغ سِنِه التقاعدية، ولا شك أن العلوم تتقاعد مثلما يتقاعد البشر، غير أن الفارق أن العلم لا يدرك سنه التقاعدي ولا يراه»(الغذامي ع.، 2005، صفحة 87). فـ"الغذامي" يشبه النقد الأدبي بالإنسان الهرم الذي لم يعد قادرا على تقديم مزيدٍ ويأخذ على ساعده مهمة إزاحة النقد الأدبي عن تقديم دراسات لم تعد تسمن ولا تغني من جوع بل ويقع اللوم على النقد الأدبي لأنه بقي منشغلا بالجانب الفني ولم يحاول التصدي للأنساق إذ أنه حتى ساهم في

نشرها. و « نحن لو تمعنا ديوان العرب بناء على مفهومنا حول الأنساق المضمرة لوجدنا أن الشعر كان هو المخزن الخطر لهذه الأنساق وهو الجرثومة المتسترة بالجماليات»(الغذامي ع.، 2005، صفحة 87). فليست الجمالية ضمن نطاق اهتمام نقد الأنساق بل الوقوف عندها والانعكاف عليها هو ما منح الأخيرة سمة التسلل والتغلغل والفاعلية والأدب كمادة دسمة للدراسة تحتوي ما هو أكثر من المجاز والبديع والمحسنات والأفكار السطحية فهذه الأمور ما هي إلا مُظللة.

لكن بما أن النسق يُنتج مع الخطاب هل يمكن التصدي للأنساق عن طريق العملية الإبداعية؟

ببساطة "لا" لأن«الشاعر العربي قد يوجه نقداً عميقاً للواقع، و يهزَّ العالم و القيم ويُسقط الرموز النسقيّة في الواقع لكنه في مواجهة ذلك يقيم رمزا نسقيا موازيا متصلبا »(غلوم، 2002، صفحة 33) هذا ما خلص إليه الناقد "إبراهيم عبد الله غلوم"* بعد تمعنه في أبيات الشاعر "قاسم حداد" التالية:

«يتكاسرٌ حولّه الكلامٌ
يتحشّدٌ مثل كتائب القتال
يتأسسٌ ويحاذي
يوازي وينزاح
يتجاوز ويخرج
يصيرٌ المتن هامشاً له والحاشية شهوة النار
لكنه لا يكترث ولا يهتم

أكتتبنا بهذا الشكل
كي نبقى بشكل شاهق
وامنح قصيدتك الهواء
مغامراً بنشيجك المشحون
وادفعنا معاً.. نبكي معك
أكتب كما يُملي هواك
تكون قنديلاً لنا بجنونك الأخّاذ».(حداد نقلا عن غلوم، 2002، صفحة 32)

لهذا فإلغاء النسق بالفن حرب خاسرة و دوران في حلقة مفرغة لأنه يهدم نسقا ليصنع آخر في نفس الوقت، فالحل«كما أنا لدينا نظريات في الجماليات، فإن المطلوب إيجاد نظريات في (القبحيات) لا بمعنى البحث عن جماليات القبح، مما هو إعادة صياغة وإعادة تكيس للمعهود البلاغي في تدشين الجمالي وتعزيزه، وإنما المقصود بنظرية القبحيات هو كشف الأنساق وفعلها المضاد للوعي و للحس النقدي»(الغذامي ع.، 2005، صفحة 84). فالتصدي للأنساق ضرورة لما لها من تأثير خفي ومباشر على الوعي العام وأول عائق يجب طرحه من المعادلة هو القناع الجمالي الذي يعمل كواجهة براقة وجذابة في حين يضمر حيلا ثقافية يتم تناولها بلا إدراك« بمعنى آخر النقد الثقافي هو-إذن- نوع من (علم العلل) كما عند أهل مصطلح الحديث، وهو عندهم العلم الذي يبحث في عيوب الخطاب و يكشف عن سقطات في المتن أو في السند، مما يجعله ممارسة نقدية متطورة ودقيقة و صارمة. ولا شك أن البحث في علل الخطاب يتطلب منهجاً قادرا على تشريح النصوص ولاستخراج الأنساق المضمرة ورصد حركتها»(الغذامي ع.، 2005، صفحة 84). فانشغال هذا النقد بالعيوب المضمرة يعود إلى أن تأسيسه الذي كان بهدف إيجاد حل عن طريق عملية الرصد والتنبيه من الأنساق ولا شك أن في كلام "الغذامي" كثيرا من المغالاة، فالأمة العربية لن تغير نظرتها للشعر بهذه السهولة وهو على دراية بالأمر غير أنه إلحاحه لاقتناعه بأهمية دور النقد الثقافي كمصفاة للتقليل من التلوث النسقي« كونه نظرية في نقد المستهلك الثقافي (و ليست في نقد الثقافة هكذا بإطلاق، أو مجرد دراستها ورصد تجلياتها وظواهرها)»(الغذامي ع.، 2005، صفحة 81).

يجتمع "إبراهيم عبد الله غلوم" مع "الغذامي"في هذا النقد الذي هو نقدٌ«غير مرتبط بالظروف الكولونيالية، من خلال تناوله للأنساق الثقافية العربية، و هو يختلف عن النقد الثقافي المرتبط بالظروف الكولونيالية حيث يختص بدراسة الأدب القومي مُحددا ما يحويه من أشكال التسلط و الهيمنة، و مستخرجا أهم الأنساق الثقافية التي تكتنز نصوصه» (حيولة، 2021، صفحة 14).فلا عجب أن يلتقي الباحثان في كثير من النقاط من بينها رد أسباب التخلف إلى مشاكل مرتبطة بنا نحن ولا علاقة لها بالآخر أو نظرية المؤامرة فالدخول في دائرة الشكوك والتوهمات والتوجسات يزيد الطين بلة و يصرفنا عن الحقيقة المتمثلة في أن ما يهيمن من أخطاء وإشكالات هي نسقيّة في الأساس، متوارثة أثرت في تركيب هويتنا وتبلورت وتترجمت على أرض الواقع في شكل تخلف و تقهقر و ضعف يمس جميع الميادين «ليست التحديات التي تواجهها الثقافة العربية اليوم عددا متواليا من المشكلات كما يتوقع كثيرون وإنما التحديات قوى نسقيّة

مهيمنة ينبغي اكتشافها من أجل معرفة حدود ما تشكله في أنساق الثقافة العربية من تشويه وتزييف وإعاقة أو من بعث و اندفاع خلاق»(غلوم، 2002، صفحة 17). نظرة إبراهيم عبد الله غلوم إلى دور الثقافة أعمق وأكثر تفصيلا فهو يرى أن الازدهار الثقافي لا يكون نتيجة للازدهار الاقتصادي بل العكس فالثقافة هي القاعدة التي يستند عليها الكل.

توجيه أصابع الاتهام نحو أنفسنا هو الصواب بعينه وأول خطوة لعلاج ما نحن به اليوم من ركود فلطالما ساد الهذيان بأن الآخر سبب الفشل الذي لازمنا لعقود«في ضوء ذلك كانت التحديات – في تقديري–هي قوانا المهيمنة. التي تنتجها ثقافتنا ولا تنتجها ثقافة غيرنا. ولذا لن تكون تحديات القرن الجديد في الثقافة العربية متبدِّية في التقدم المتسارع في ثقافة الآخر، وإنما ستكون في التخلف الجاثم في ثقافة الذات، و هذه عملية تقتضي التحرر من عقدة الآخر»(غلوم، 2002، صفحة 18). هذا الرأي المشحون بحس المسؤولية يعكس إيمانا واضحا بأن الحاجة إلى مراجعة الثقافة العربية أصبح ملحا لاشتمالها على مواطن الخلل، و من جهة أخرى فالثقافة في مجتمعنا العربي تعرضت لنوع من الإقصاء عن دورها المهم واستخدمت كوسيلة لتنمية الشهية الاستهلاكية و كما قد تُفهم بأنها حكر على طبقة معينة و لا حاجة للآخرين إليها.

«استخدم مفرد ثقافة/ثقافي –دوما– في سياق ما أقرته أدبيات العلوم الاجتماعية بوجه خاص ، و لست أستخدمها في سياق نخبوي(أدباء، مثقفين، أو أية نخب أخرى) و ربما كان أنسب تحديد للثقافي الذي أعنيه هو أن الثقافة –كما سبق أن أشرت لذلك – هي الكل المركب الذي يتألف من كل ما نفكر فيه، أو نقوم بعمله أو نسلكه كأعضاء في مجتمع . . الأمر الذي يعني أن الثقافة وفق هذا التعريف هي مزيج من الفكري و السلوكي والمادي»(غلوم، 2002، صفحة 283). فبالثقافة لا يقصد تلك التراكمات المنتجة عبر عصور من الإبداع، و لا تنحصر في الكتب أو المعلقات في دور العرض و الفنون كمجرد تكديس و جمع للإنتاج الفكري،وإنما تشمل الكل فتتعدى ما سبق ذكره إلى الجانب السلوكي والممارسات اليومية فالثقافة: فكرة و فعل في نفس الوقت، إنتاجٌ و مُنتِج و هي كل تلك المعطيات والمعلومات المختزنة في الذهن و التي بها يقوم الفرد – النخبوي أو العادي على حد سواء – باستخدامها في تفكيره أو تحليله أو طرحه لوجهة نظر معينة.

يرى "غلوم" أن أكثر القوى النسقية قوة و هيمنة هو الاستبداد الذي منبعه التراث و هذا الأول قوة هدامة و عقبة ومانع يرتد سلبا على سير المجتمع ككل لكونه يرفض التباين و الاختلاف «هناك أمثلة كثيرة يمكن

تتبع هبوط مركباتها النسقية والنمطية من التراث إلى الثقافة العربية المنتجة للمجتمع المعاصر..و قد لا يتسع المجال للحفر في مجموعة أمثلة، و لكن يمكن الإشارة إلى مثال يتقاطع بقوة مهيمنة في ثقافتنا و حياتنا المعاصرة و هو نمط الاستبداد.. أو نسق الاستبداد الذي يحرك وعي الشخصية العربية نظراً لتراكمات نسقية تراثية»(غلوم، 2002، صفحة 22). فالاختلاف و التنوع ظاهرة حميدة و عامل إثراء و لا يعني تهديدا للوحدة و أو الانقسام ، بل الوحدة يجب أن تجمع كل التنوعات تحت غطاء القبول و أخذ وجهات الرأي الأخرى بالحسبان هو ما يجعل الرأي أكثر صوابا و القول بأن التراث هو« كقوة مهيمنة متخفية أو حاضرة ومحتوية للثقافة العربية ومعوقة لحركيتها و انفتاحها»(غلوم، 2002، صفحة 21) لا يفهم منه اتخاذ موقف معاد للتراث ،بل هو كذاكرة للأسف تختزن نسق الاستبداد.

4.خاتمة:

بعد هذا المقال الذي اعتكف على النسق المضمر ودراسة خصائصه واستراتيجية التصدر له نخرج بهذه النتائج:

- الأنساق المضمرة تتواجد في صورتين:ايجابية وسلبية وهدف النقد الثقافي – الحالي والذي لا يزال في تبلور–هو ما يلزمه بالعزوف عن الايجابية منها.
- هدم النسق بالإبداع الفني كالشعر عملية عقيمة تؤدي إلى صناعة نسق آخر.
- إن استخدام مصطلح "نقد ثقافي" هو فضفاض مقارنة مع مفهومه ويتعارض مع المفهوم العام لمصطلح "نقد" الذي هو عملية تقويمية وبناءة تقوم على شقين إبراز الايجابيات وانتقاد السلبيات بهدف تحسينها، في حين أن "النقد الثقافي" هو انتقادات قد تكون لاذعة لكنها ذات نية حسنة تعمل على ترشيح الخطاب من الحيل الثقافية المتربعة خلف عرش الجمالية.

5.قائمة المراجع:

- إبراهيم عبد الله غلوم. (2002). *الثقافة و إنتاج الديمقراطية*. بيروت: المؤسسة العربية.
- ابن منظور. *لسان العرب*. دار المعارف.
- الزّمخشري. (1998). *أساس البلاغة*. لبنان: دار الكتب العلمية.
- المتنبي. (1983). *ديوان المتنبي*. بيروت: دار بيروت.
- سليم حيولة. (2021). *استراتيجيات النقد الثقافي في الخطاب المعاصر*. الجزائر: دار ميم.
- عبد القادر الرباعي. (2007). *تحولات النقد الثقافي*. عمان: دار جرير.
- عبد الله الغذامي. (2005). *النقد الثقافي، قراءة في الأنساق الثقافية العربية*. المملكة المغربية: المركز الثقافي العربي.
- عبد الله مُحَمَّد الغذامي، و مُحَمَّد اصطيف. (2004). *نقد ثقافي أم نقد أدبي*. دمشق: دار الفكر.
- عبد الملك مرتاض. *هؤلاء أصدقائي*. الجزائر: البصائر.
- مُحَمَّد غنيمي هلال. (1972). *النقد الأدبي الحديث*. بيروت: دار العودة.

6.الملحق:

إبراهيم عبد الله غلوم حسن، من مواليد مدينة الحد – البحرين 1952، ناقد أدبي وكاتب مسرحي. بدأ كتاباته منذ بدايات السبعينات ونشر العديد من الدراسات في نقد القصة القصيرة والمسرح والرواية والتراث والثقافة، حائز على دكتوراه دولة من كلية الآداب والعلوم الإنسانية – الجامعة التونسية1983، أستاذ النقد الحديث في جامعة البحرين، وعضو أسرة الأدباء و الكتاب و رأس مجلس إدارتها لعدة سنوات كما شغل عدة مناصب أخرى هامة يُنظر إبراهيم عبد الله غلوم، الثقافة و إنتاج الدّيمقراطية، المؤسسة العربية، الطبعة الأولى، لبنان، 2002، ص 343.